obeikandl.com

مـلء العـين

Llenar el ojo

Al-Andalus
Vol : XLI - 1976
Fasc . 2

obeikandl.com

حكاية إسبانية من أصل عربي

مـــلء العين

أريد أن أتحدث في هذه الصفحات عن عبارة شعبية في قشتالة القديمة هي «ملء العين» أو «ملأ له عينه» بمعنى راق له ، أو سره جدا ، أو أقر له عينه . معنى دقيق لما عرفته منذ الطفولة لسماعي له مرات لا تحصى في بيتي . يدفعني إلى الحديث عنه أن الجملة لا يجري استخدامها خارج قشتالة . قمت باستقصاء بسيط بطريقة منظمة بين زملاء وأصدقاء من أقاليم أخرى ، فلم أجد التعبير في أماكن كثيرة ، بعض الزملاء عرفه ، وقليلون آخرون في وسعهم فهمه .

ومع ذلك فالجملة أيضًا لدى الكلاسيكيين الإسبان (لا أعرف لها سوابق في العصر الوسيط) وكذلك لدى كتاب في أيامنا هذه يحدد التعبير قاموس الأكاديمية الملكية تحت باب «عين» ويشرحه هكذا : ملأ له عينه بشيء ما : سره كثيرا بشيء يبدو كاملا ، أو بشيء متميز في إطاره .

ويقول قاموس الشواهد في مادة «عين» ما يلي : أترع أو ملأ العين : جملة يفهم منها أن شيئا كاملا سره كثيرا ، أو شيئا متميزا في إطاره ، وفي اللاتينية

Maximé arridére . omnino
Placêre . Cerv . 8 . pl 260.

زين البائع حماره ، فملأ عين الأشتوري ، ولدى كيبيدو في انترميه : تسأل المالكة: من هذا ؟ فإنه قد ملأ عيني .

ليس في ذرعنا أن نشكو من الشواهد التي تتضمن التحديد ، فالعبارات اللاتينية التي تعبر عن تلك الفكرة في القشتالية لا تدع للشك مجالا ، في استقلال الثانية عن الأولى ، حسبنا فقط أن نراجع المادة «عين» في العمل لكي نقف على الجهد الفعلي الذي قام به المحررون لذكر العبارات اللاتينية المناظرة لكل تعبير في القشتالية ، والتي تخون الصلة الحميمة ، وأكثر من ذلك في التعبير الحرفي، فالجملة «ملء العين» ليس لها أصل لاتيني .

بين أمثلة العبارات المصوغة مع الفعل «أترع» المشروحة في ذخيرة كوبارروبياس تبدو جملتنا هكذا : «أترع العين بشيء» مشروحة بما يلي : «سره» وبعد ذلك يستخدم المعنى «أسعده» بمعنى أنه ليس في الوسع إعطاؤه أكثر من ذلك .

إحدى هذه «المواد العامية ، سيئة الإيقاع ، هابطة ، رديئة المعنى ، وقحة ، عارية، دون حواش ، غامضة دون توضيح» والتي يوصي بدرو اسبنوسا بمنعها جملة «لا تترع عيني» على التحديد .

بين الجمل التي جمعها كوبارروبياس في خاتمة معجمه الممتاز يبدو أيضًا الفعل القديم أترع ما زال حيا بدلا من ملأ الذي أخلى له مكانه ، يقول ما يلي : أترع العين؛ سره شيء ما لم يترع عينه : أي لم يسره .

كان ثمة تعبير شعبي قديم يوضحه مثل من الأمثلة التي جمعها مورسن بدرو بلاس في القرن السادس عشر هو «عجة رقيقة تقرعيني ، وتخرج روحي» ويبدو كذلك بين أمثلة القومنادادور الإغريقي «عجة رقيقة تقر عيني ، وتخرج روحي» مع هذا الشرح : لأنها تؤكل بشهية ، وتبدد الدراهم .

لا أعرف شواهد أخرى حتى القرن العشرين ، يستخدم ميجيل دليبيس – ومعروف أنه من بلد الوليد ، وكاتب قشتالي – في كتابه «حكايات قديمة من قشتالة القديمة ، مع تحريف المثل ، وهو كما يبدو مثل في السياق التالي :

كانت روسا ماري فتاة نظيفة ، مجتهدة ، كانت تملأ عين عمتها مارثيلينا ، كانت العمة مارثيلينا تقول لي : عليك بالبحث عن امرأة للمنزل ، وبما أن أحدا لا يلتفت ، كانت تضيف : انظر هنالك تر روسا ماري ، في اليوم الذي تكون فيه شابا عليك بالزواج بها .

يذكر مانويل أرثي في «وصية في الجبل» الجملة في موقف مشابه إلى حد لموقف دليبيس الذي رأيناه الآن :

للأسف أننا نموت ، ونترك المال لزوجة تتزوج بعد شهرين بمن يملأ عينها .

لقد رحلت الجملة إلى أمريكا ، ففي تلك الرواية الرائعة «الناس اللي تحت» للمكسيكي ماريانو أثويلا ، الشاهد على الثورة المكسيكية ، بوصفه طبيبا بجوار بانشوبيا ، نجد الجملة تبدو في حوار حي ، وتثير الإعجاب في سياقها :

انظر ، لماذا تقيدني امرأة

إذا هي لم تبدأ ، فلن أتحمس – يتنهد –

هنالك كاميلا ، تلك الفتاة القروية ، البنت الدميمة

غير أنها تبدو ، وكأنها تملأ عيني .

الكناية «ملء العين» بمعناها الدقيق الذي تعنيه في الإسبانية والذي تحدده بوضوح المعاجم والعبارات التي رأيناها موجودة في اللغة العربية في العصر الوسيط والحديث : يشرح لاين ملأ العين : «سره وأرضاه» .

مستشهدا ببيت من الشعر في تاج العروس . والتركيب الشائع أكثر هو استخدام المفعول به المتصل بضمير الملكية «عينه» كما تقتضي أيضًا طبيعة اللغة الإنجليزية his eye . ويستشهد قاموس كاز يمسك بصيغة ملأ عينه . أي بلغ به غاية الرضا .

لكن لندع المعاجم جانبا إذ هي مقابر للكلمات ، ولنر النصوص .

في كتاب أندلسي شديد الأهمية – يبدو أنه لم يثر اهتمام أحد – هو كتاب الذخائر والأعلاق لابن سلام الباهلي (توفى 1149) يذكر مؤلفه حكاية تتعلق بالخليفة العباسي المعتصم بالله وقد حُكم بالإعدام – في حضرته – على رجل واجه الموت بشجاعة : وكان رجلا وسيما يملأ العين .

ويقول الكاتب والشاعر أبو البقاء الرندي المشهور في تاريخ الأدب الإسباني باسم (Abulbeca de Ronda : 1204 – 1286) في رسالة يرد فيها على صديقه : «بيضاء كاللجين ، ملء القلب والعين» .

ويحكي لنا المقري في نفح الطيب كيف استطاع علي بن سعيد أن يحظى بعطف الأمير الحفصي أبي عبد الله المستنصر – الذي حكم بالموت على ابن الأبار – وكان قد سخط على الرئيس ابن الحسين . وقبض على دياره وأمواله وصيره كالمحبوس ، فكتب إليه رقعة يطلب الاجتماع به في مصلحة للدولة ، فأحضره وسأله فأخبره بأن أباه صنع دارا عظيمة تحت الأرض ، وأودع فيها من أنواع المال والسلاح ما جعله عدة وذخيرة لسلطانه .... إلى أن يقول : ففرح السلطان وبادر إلى تلك الدار فرأى ما ملأ عينه وسر قلبه وخرج الرئيس ابن الحسين ، والخيل تجلب أمامه وبدر الأموال بين يديه .

ويجمع دوزي في Lettre à . M . Fleicher ، المذكور آنفا جملة ابن الأثير (وصله بما ملأ عينه) لم أستطع التثبت من هذه الجملة ، ويبدو أنها تعني سره . وفي الملحق

ذكرها من جديد ، وترجم العبارة بكلمة Plaire ، ويذكر فيه هكذا ، وإن كان لم يترجم نصا آخر للعمراني : «كان كاتبا بليغا ، فصيحا ، كريما ، يملأ العين ، العين والقلب» . مرة أخرى يجمع بين العين والقلب .

في رسالة مهمة ترجمتها ، وأنتظر نشرها قريبا ، يقول الكاتب محمد بن عبد الله ابن داود الغافقي (توفى 1287) يحكي عن زيارته لأشبيلية : «فشاهدت من المباني العتيقة والمنارة الأنيقة ما يملأ أعين النظار» .

وفي ترجمة شخصية مشهورة في غرناطة النصرية ، هي شخصية الشاعر الوزير محمد بن الحكيم اللخمي ، وترجمته في الإحاطة يقول ابن الخطيب قبل أن يورد قصيدته التي أنشدها في بلده رندة بحضرة السلطان : «وهو إذاك فتى يملأ العين أبهة ، ويستميل القلوب لباقة» .

ويكرر ابن الخطيب نفسه حين ترجم للسلطان الغرناطي نصر الملقب بأبي الجيوش في الإحاطة ، فقرة من كتاب آخر له هو «طرفة العصر في أخبار الملوك من بني نصر» يقدمه هكذا : كان فتى يملأ العيون حسنا ، وتمام صورة .

ما تزال جملة «ملأ العين» حية في الأدب العربي الحديث ، فمعجم إلياس يذكر ملأ عينه بمعنى أرضاه ، وسره دون أن يصف الجملة بأنها اصطلاح حديث أو تعبير مصري ، وقد أكد لي بعض الأساتذة والطلاب من فلسطين وسوريا ومصر أن العبارة تستعمل في الكلام العادي .

لم يتهيأ لي للأسف أمثلة من الأدب العربي المعاصر سوى مثلين عثرت عليهما أثناء قراءتي لكتاب الكاتب المصري الكبير الذي رحل مؤخرا عباس محمود العقاد ، أولهما في مستهل الكتاب : «والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور ، وكيف يكون

فضاء ما يملأ العينين ويملأ الروح ، ويصل الأرض بالسماء؟» ويقول فيما بعد ؟ «ماذا تستبيح ، وماذا تحرم وأنت تنظر من هذه النافذة؟ أتستطيع أن تملأ عينيك من شيء غيرك كما قال الأديب الحجازي؟» .

يذكر الكاتب في مثله الأخير – في دقة – مثلا قديما ذكره الميداني ونشره فريتاج في «الأمثال العربية» : «ملأ عينيك شيءُ غيرك» .

ما تزال حية عبارة «ملأ العين» (إذا كانت غير مختلفة) لأنها مشتقة – فيما أعتقد – من حديث أو أثر نبوي ، حدث له تحريف لتحوله إلى مثل شعبي يحتفظ بعلاقة وثقى بمثل الميداني الذي رأيناه آنفا ، إحدى صور هذه التعبيرات التي استطعنا أن نراها أقدم ، نشرها وشرحها كوركارد : ما يملأ عين [بن] آدم إلا التراب .

يقصد أن المرء يظل طموحا وطامعا إلى أن يودع التراب ، والتعبير المألوف (عينه مليان) = عينه مليئة ، أو ينال كل دواعي الشهوة والرغبة ، «وهذا لا يملأ عينه» أو يرضيه ، هذا المعنى المجازي يتضمنه المثل السائر الذي يجيء بمعنى «يملأ عينه» ويعني هنا تراب القبر ، .. وحديث للنبي ﷺ مشابه لهذا المثل في المعنى يقول ما يلي:

لا يملأ جوف [١] بن آدم إلا التراب .

يشير المثل الكلاسيكي لدى الميداني إلى الخطيئة العظمى للجسد ، والمثل الشعبي إلى الطمع وعدم الرضا القابع في بني آدم ، واللذين لا ينتهيان إلا بالموت ، بمعنى حين «يملأ العين» تراب القبر ، بالمعنى الحقيقي والمجازي ، نرى المثل مشروحا من بوركارد في المجموعة القيمة التي ألفها العلامة أحمد تيمور ، ويذكر أيضًا مثلا آخر يشابه القول المأثور :

جفن العين جراب ما يملاه إلا التراب

المثل في الصورة ذاتها – مع تغييرات لهجية طفيفة – مجـرد في مجموعـات مختلفـة من الأمثال (على الأقل في العراق ولبنان والكويت والجزائر والمغرب) .

حديث محمد ﷺ ، الذي ذكره بوركارد في شرحه للمثل وبه تشابه مـع المثـل في الواقع – عثرت عليه – مع تغييرات لها دلالة – نراها فيما بعد – في تطابقات فنسنك حتى ثماني عشرة مرة ، يذكره منسوبا لابن حنبل (من بـين كبـار رجـال الحـديث) ، ومع ذلك أعتقد أن دلالة المثل وربما أصل التعبير (ملء العين) ينبغي البحث عنه في حديث آخر ، جمعه أيضًا فنسنك ، مذكور فقط في صحيح مسلم ، وهـو : فـما خلـق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلـك القبـضة . كـان عـسيرا عـليّ أن أجـد هـذا الحديث في باب الجهاد أو الحرب المقدسة في «الصحيح» وهي الرواية الوحيدة التي لم تتهيأ للطبعة التي استند عليها فنسنك .

إطار حديثنا الذي رواه الابـن عـن ابـن الأكـوع الـشاهد الرئيـسي للحـادث ، والحلقة الأولى في سلسلة الرواة ، مؤسس على رواية غزوة حنين التي أحـرز النـصر فيها محمد ضد المشركين في 8 يناير سنة 630 ، بعد قليل من فتحه مكـة . يحكـي ابـن الأكوع الذي قام بنشاط فعال في الغـزوة ، حيـث عـاد القهقـري بـين المـسلمين في تشعث بعد هجمة غير متوقعة من العدو بعد نصره المتوقع .

يحكي الراوي : غزونا مع رسول الله ﷺ حنينا فلما واجهنا العدو تقـدمت فـأعلو ثنية فاستقبلني رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عني ، فما دريت ما صنع ، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة رسـول الله ﷺ فولى أصحاب رسول الله ﷺ وأرجع منهزما وعـلى بردتـان متـزرا بإحـداهما مرتـديا بالأخرى ، قال ، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعا ومررت على النبي ﷺ وأنـا منهـزم

وهو على بغلته الشهباء فقال : «لقد رأى ابن الأكوع فزعا» فلما غـشوا رسـول الله ﷺ نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض واسـتقبل بـه وجـوههم وقـال «شاهت الوجوه» فلما خلى الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا من تلـك القبـضة فولـوا مدبرين ، فهزمهم الله ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين .

لم أعثر على هذا الحديث بين الروايات التي جمعها الرواة المسلمون عن مشاركين آخرين في المعركة ، كلهم يتفقون في أن النبي ترجل عـن بغلتـه (تـذكر الروايـة أنهـا رمادية ، بيضاء ، وبعضها يذكر اسمها دلدل) وقبض قبـضة مـن الـتراب أو بعـض الحصى (بعض الروايات يقول ثلاث مرات) أو أعطيت له ، ورمى بهـا في وجـه (أو في أعين) الأعداء ، صائحا ، (أو صاح آخر) أو دعا علـيهم ، ممـا كـان لـه الأثـر في هرب المشركين أو هزيمتهم .

هذا الفعل من محمد ، إلقاء التراب على العدو – عمل ذو دلالة تصويرية صـنعه أيضًا في غزوة بدر – يذكره القرآن في سورة الأنفال حين قال : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ .

المصنفات التي أشارت إلى هذه المسألة ، – سواء كتب المـؤرخين أو كتـب شـيوخ المفسرين – التي استشرتها (دون غرض الاستقصاء بالطبع – أو التي لم تجمـع كلـمات محمد حين رمى التراب (أو الحصى) في وجوه الأعداء ، أو كانت مختلفة في جوهرها – لم تحتو – في أي حالة – على تعبير «ملء العين» : مثلا «رمى في أعينهم جميعـا الحـصى» أو «لم يبق واحد منهم إلا اشتكى من الرمـاد في عينـه» ، أو «لم يبـق رجـل إلا ودخـل التراب في عينه» أو «لم تبق عين إلا ودخلها التراب» أو «رمى في وجوههم التراب».

فسر المفسرون الآية القرآنية تفسيرات كثيرة متعـددة ، ويتفقـون عامـة في تلـك النقطة : فالله هو الـذي صـنع المعجـزة في هزيمـة المـشركين ، ولا نـضع أنفـسنا في

مشكلات ، ولنعد إلى صحيح مسلم أحد كتب الصحاح الكبيرة التي رتبت الأحاديث حسب موضوعاتها ، ويبدو أنه الوحيد الذي جمع هذه العبارة : «فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا» . إن الاستغناء عن الكلمات التي تحتها خط معناه حذف العبارة من سياقها التاريخي ، ومعنى هذا استطاعة الوصول بسهولة إلى عبارة مأثورة يقدمها لنا المثل الشعبي ، الذي يعبر عنه هكذا : لا ، أو ما يملأ عين الإنسان (ابن آدم) إلا التراب .

لكن هذا المثل ليس مثلا على وجه الدقة بل هو «حديث» ذكره بوركارد وجمعه فنسنك في صيغة «ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» الذي أشرنا إليه آنفا . يذكر فنسنك خمسة وعشرين موضعا يذكر فيها هذا الحديث (فقط في الصحاح الكبرى) ويذكر التعبيرات يسد بدلا من يملأ ، وفم أو عين بدلا من جوف . ولم أتحمس لدراسة هذه التغييرات في تلك الصيغ المتعددة ، لذا أنتقل إلى نقطة أخرى .

في قصيدة مدح نظمها ابن زيدون ، وجهها إلى أبي الحزم بن جهور ، يتحدث الشاعر إلى الرجل الذي تولى مقاليد الأمور في قرطبة بعد سقوط الخلافة ، يصفه جالسا ، جميلا ، مبتسما ، مليئا بالرحمة والجلال ، فيقول له :

ملأ النواظر صامتا ، ولربما ملأ المسامع سائلا ومجيبا

بيت آخر لابن شرف – ذكره ابن بسام – معلقا على القصيدة التي فرغنا توًّا من ذكر بيت منها – من قصيدة يمدح بها أمير القيروان . وفي البيت تعبير قوي عن الفكرة :

سل عنه ، وانطق به ، وانظر إليه نجد ملء المسامع والأفواه والمقل

لم يستخدم أي من البيتين كلمة «عين» . ذكر ابن زيدون «نواظر» جمع «ناظرة» واستخدم ابن شرف مرادفا آخر «مقل» جمع مقلة ، ربما هربا من كلمة شائعة في الحديث العادي ، تبدو غير شعرية .

وفي إيجاز ، فإن التعبير الإسباني «ملأ عينه» يناظر تماما في العربية ما يبدو أنه ترجمة حرفية «ملأ العين» و«ملأ عينه» ، تلك الأخيرة تستعمل أحيانا – كما رأينا – مؤيدة بتعبير مناظر : سر قلبه ، ربح قلبه ، أو تصلح مفعولا مزدوجا : ملأ العين والقلب ، والعين والنفس ، ولنحلل بعض الشيء استنادا إلى العبارات العربية التي رأيناها : «ملأ العين» بصفة خاصة الجمال الظاهري ، «ملأ السمع» جمال الصوت ، أو عبارة طلية .

إنه حديث نبوي ، أصل محتمل لآخر ، قد حظى بانتشار أوسع ، قد غدا في النهاية طائفة من الأمثال التي رأينا منها نماذج قليلة ، ويبدو أن الجملة العربية حظيت بحيوية أكبر مما حظيت به في الإسبانية ، وصلحت تعبيرا عن أفكار تستخدم المعنى الحقيقى والمجازي .

البناء البسيط «ملأ العين» يعني تماما "llenar el ojo" راق له ، سره شيء ، أو أحيانا كثيرة سره إنسان «يروق للعين» في هذا المعنى .

أليس في الوسع أن نفكر في أن «ملأ العين» – مع الأخذ في الاعتبار أنه ليس له مناظر في اللغات الرومانية – هو في بساطة جملة طبق الأصل من العربية ؟